الفصل الخامس

وادى النيل

كان النيل فى العصور الچيولوچية مقتصراً على ما نسميه اليوم نهر عطبرة والنيل النوبى ونيل مصر . أما ما نسميه فى عصرنا هذا المنابع الاستوائية ومجموعة بحر الغزال فكانت مياهها تنصرف إلى ناحية الغرب ، بينما كان النيل الأزرق وما يرتبط به ينصرف ماؤه إلى البحر الأحمر أو ما يواليه .

فلما كان العصر الچيولوچى الثالث حدثت تغيرات مهمة فى هذه الناحية من العالم ، كانت نتيجتها أن ارتفعت الأرض الواقعة إلى الشمال والشرق من نهر الكونغو ، بحيث تغير خط تقسيم المياه إلى درجة وجهت ماء المنبع الاستوائى وماء بحر الغزال وما يتصل به إلى ناحية النيل النوبى . وارتفعت الحافتان الجنوبية والشرقية مما نسميه هضبة الحبشة فتحولت مياه هذه الهضبة إلى النيل النوبى كذلك .

وكان هذا النهر بأصوله الثلاثة يصب فى خليج رأسه عند ادفو ويشمل ما نسميه وادى النيل من تلك البقعة إلى قرب موقع القاهرة ثم ينفرج الخليج حتى يشمل الوجه البحرى كله . وكان يحد هذا الخليج من الشرق تلال صحراء العرب . . . ممتدة من المقطم إلى جبل جنيفة ، ويحده من الغرب تلال صحراء ليبيا . ومن هذه التلال انفصلت القطعة التى عرفت باسم بوقير ، وفى ذلك

العصر كان خليج السويس يمتد إلى البحر المتوسط بحيث يصل بينه و بين البحر الأحمر على شكل مضيق .

و بقى النيل يلقى برواسبه فى قاع الخليج مدة طويلة حتى امتدت الرواسب إلى رأس بوقير وسواحل الشام . ومن هذه الرواسب تكون الوادى من إدفو شمالاً وتشكلت الدلتا إجمالاً وذلك قبل ظهور الجنس المصرى .

وكان المناخ يختلف كثيراً عما هو عليه الآن ، إذ كان المطر من الغزارة أكثر مما يشاهد فى الإقليم الاستوائى كما تدل على ذلك الوديان الكثيرة التى كانت تجرى من جبال صحراء العرب إلى النيل ، والتى ما نزال نرى مجاريها التى لا تحصى . وكان النيل واسعاً ضحلا ؛ فكان عند موقع القاهرة نحو خمسة عشر كيلو مترا ، كما تدل على ذلك آثاره فى جبل المقطم ، وفى هضبة الأهرام الكبرى .

ولما كانت مصر أشبه بإقليم خط الاستواء من حيث المناخ والنبات والحيوان ، لم يكن للنيل قيمته الحالية فى الرى ، وكان واديه على الأكثر في شكل بحيرات تسبح فيها التماسيح وأفراس الماء ، ومستنقعات تكثر بها أنواع الطير . وما تزال بركة قارون ومستنقعات وادى النطرون تشهدان بما كانت عليه تلك البرك والمستنقعات من السعة . وكانت تحيط بهذه البرك والمستنقعات غابات استوائية تجول فيها الحيوانات الاستوائية آكلة العشب وآكلة اللحوم على نحو ما يرى الآن فى الإقليم الاستوائى .

هكذا كانت مصر حين تفتحت عليها عين الإنسان لأول مرة . وكان الجليد الذى يغطى القطب الشمالى الآن ينزل من حين إلى حين حتى يبلغ

البحر المتوسط فى بعض الأحيان . و بسبب هذه الزحوف الجليدية تأخر رقى الإنسان فى قارة أوروبا . ومن حسن حظ مصر أن البحر المتوسط حماها من هذه الغارات الجليدية فلم تعرقل رقيها ، و بقيت تتمتع بأمان تام من البرد القارس الذى يعوق الرقى البشرى . وفى ذلك العصر كان آباؤنا يهيمون على الهضبات المحيطة بالوادى يعيشون على الصيد و يدونون ما يهمهم على صفحات صخورها مما لا تزال آثاره واضحة المعالم .

فلما تكون الوادى والدلتا انتقل إليهما بعض هؤلاء الصيادين فوجدوا حيوانات أكثر تنوعاً وأعظم إمتاعاً وأعود عليهم بالفائدة . ولم يكن أحد على وجه الأرض قد زرع إلى ذلك الحين حبة واحدة من القمح أو أى مادة غذائية أخرى .

وبمضى الزمن بدأ الصيادون يستلذون الخضر فشرعوا يزرعون بقاعاً خالية على حافات الوادى . و بتحسن الزراعة ظهر القمح المستنبت والذرة و نبات آخر غير معروف الآن كان يسمى « الأما » . و بقى السكان مقسمين بين الوادى والهضبة إلى أن قل المطر فأصبحت الهضبة صحراء قاحلة فاضطر جمهورهم إلى الإقامة فى الوادى ، وكان مستواه إذ ذاك أخفض من مستوى سطحه الحالى بنحو عشرة أمتار . وعند ما ارتفع المستوى القديم بنحو متر ونصف متر كانوا قد أحسنوا الزراعة واستأنسوا الوعل والثور . وبهذين الموردين : الحبوب والحيوان المستأنس انتقل آباؤنا من البداوة إلى الإقامة والاستقرار لحرث الأرض وتربية الماشية .

ولما صار النيل وحده واسطة الرى كان أكثر ما نسميه مصر اليوم

قد تحول من خليج إلى قالب من التربة الخصبة كونه النيل فى صبر وأناة ، ثم تعهده بالزيادة عاماً بعد عام . وقد أدرك آباؤنا الأقدمون هذه الحقيقة وعبروا عنها بما كانوا يكتبون على شواهد قبورهم من نحو العبارة الآتية : « الأشياء التى خلقتها السماء أو أعطتها الأرض — كل هذه الأشياء أتى بها النيل من منابعه المجهولة » . وهذه الكتابات هى التى أوحت إلى هكاتيه الجغرافى اليونانى بالمعنى الذى صاغه هيرودوت فيما بعد بقوله : « إن مصر هبة النيل » . وهو تعبير غير مبالغ فيه عن الحقيقة الجغرافية التى لولاها لكانت مصر خليجاً يشق هضبة أفريقية . وإذن فشمال الوادى مدين بوجوده وخصوبته للجنوب ؛ ولا غرابة إذا اعتقد آباؤنا أن آلهتهم جاءوا من الجنوب ، ولا عجب إذا قدسوا النيل ، ولا بدع إذا احتفلنا بوفائه كل عام .

وكان من آثار الفيضان اضطرار السكان إلى إقامة قراهم على مرتفعات من الأرض لا يبلغها الماء ، وإنشاء هذه المرتفعات ليس يستطيعه الفرد ، بل لا بد فيه من تعاون كثيرين . ومثل ذلك يقال فى الجسور التى تصل بين تلك القرى وتقسم الأرض حياضاً . ومن ثم لم يكن بد من ارتباط الناس دفعاً لخطر الفيضان واستغلالاً له ، بجر الماء إلى الأرض البعيدة عن مجرى النيل . وهذا التعاون أدى إلى الاتحاد فالقوة فازدهار الحضارة فى بلادنا قبل غيرها . و بحسبنا أن نذكر من أسباب ذلك اضطرار السكان إلى تعرف عدد أيام الفيضان وأيام التحاريق وتقسيم الماء فيما بينهم مما علمهم الحساب والهندسة ، ثم تعويلهم على الزرع فى موسم واحد وادخار جزء من الغلة للانتفاع به بقية السنة مما غرس فيهم التروى و بعد النظر .

وكان من يمن طالع هـذه المجموعة البشرية أن تـكون فى أمن من الغارات الخارجية بفضل البحر المتوسط و بفضل صحراويها ، فتعيش فى هدوء ودعة أجيالا طويلة تتيح لها بناء صرح الحضارة لبنة لبنة .

وزادت أواصر الوحدة توثقاً عن طريق النيل إذ أن تياره يدفع السفن من الجنوب إلى الشمال بينما الرّياح السائدة فى جزء كبير من الوادى تدفعها من الشمال إلى الجنوب . وساعد على تعميق هذه الصلات أن الوادى كان مغلقاً فى طرفه الجنوبى بسبب الغابات الاستوائية ومنفصلا عن البحر الأحمر بسبب تلال صحراء العرب ، فكان اتصال أهل الجنوب بالعالم المتحضر يتم عن طريق مصر . ولم تـكن الشلالات فى جنوب مصر وفى شمال السودان عائقاً لهذا الاتصال يوماً من الدهر ، حتى فى العهود الأولى حين كان أصغر العقبات يقف حاجزاً فى وجه الإنسان .

وفى الوقت نفسه ، كان سبق مصر إلى التحضر ، ووقوعها على البحر المتوسط مما طوع لها أن تـكون حلقة ثقافية بين الوادى و بقية العالم المتمدين .

ولم يكن الوادى نفسه بأقل حرصاً على تنمية هذه الوحدة وتوكيدها ، كما هو واضح من تداخل كثير من المظاهر الطبيعية فى جنباته : يستوى فى هذا التداخل مظاهر السطح والمناخ والنبات ، إذ كلها تدرج طبيعى برىء من الانتقال المفاجىء .

فإذا نظرت إلى السطح امتـدت أمامك صحراء العرب فى مصر والنوبة والسـودان الشرقى إلى حدود الحبشة ، وانبسطت لناظريك صحراء ليبيا من

البحر المتوسط إلى كردفان ، ودارفور تريد أن تقول أنها تربط هذا الإقليم الشاسع وتقدم لك البرهان القاطع بطرق القوافل كما تراها فى الخريطة .

و بين الصحراوين ، يتهادى النيل بسهله الفيضى المحدود المعالم . والصحراوان والسهل جميعاً وحدة طبوغرافية لا تفرق بين مصر وسودان .

و إذا تدبرت المناخ والنبات فى حوض النيل راعك تشابه درجات الحرارة فى صعيد مصر وشمال السودان من حيث أرقامها ومداها . و بان لك التشابه فى مقادير المطر ونظامه . ومثل ذلك يقال فى النباتات الطبيعية ، والغلات الزراعية .

و إليك صورة مصغرة من تدرج الأقاليم النباتية ، وأنت جد خبير بما لها من الأثر فى حياة الإنسان والحيوان :

فإذا بدأت من الشمال فهناك إقليم صحراوى يضن بالنبات اللهم إلا حول الآبار ومن ثم كان قليل السكان ؛ و بينما أنت سائر فى هذه الصحراء إذا بك تدخل خطوة خطوة إلى إقليم ذى عشب ومرعى يكفى لرعى المعيز والإبل فى بعض أشهر السنة . وحين حل العرب بهذا الاقليم أحسوا كأنهم لم ينتقلوا من البيئة التى ألفوها فى شبه جزيرتهم ؛ فانتشروا فيها بسرعة حتى بلغوا الخرطوم ، وأقاموا على رعى الإبل ومن ثم عرفوا بالأبّالة .

ثم لاحظ هؤلاء الأبالة أنه يجاورهم إلى الجنوب ابتداء من خط الخرطوم نوع من الساڤانا ينمو فيه العشب إلى ارتفاع لا عهد لهم به . فأخذوا يتغلغلون فيه رويداً رويداً ، حتى اعتادوا الحياة فيه على مر الأيام . وأدركوا بالتجربة

أن هذه الساقانا أصلح لرعى الماشية فعكفوا على تربية البقر ، وعرفوا من أجل ذلك بالبقارة .

ثم تسربوا فى أعداد قليلة وفى حركة بطيئة إلى الجنوب والغرب من هذا الإقليم : فوجدوا أرضاً يختلط فيها الكلأ الطويل بالأشجار الباسقة وخالطوا أهله من الدنكا والنوير . ولو تركوا لسجيتهم لتوسعوا فى تربية الماشية فى ناحية الجنوب حتى يبلغوا منطقة الذباب القاتل للماشية والمأمول أن يرفع عنهم هذا الحظر فيتموا تعريب السودان إلى أقصى حدوده .

ولا تقل الصحراوات عن الوادى نشاطا فى الربط بين أهله . والصحارى الشرقية والغربية لا تغير شيئا من نسقها بين مصر والسودان فلا تقيم عقبة واحدة بينهما ، بل أنها تعمل على الاتحاد والاندماج بين السكان سواء كانت الهجرات من الجنوب إلى الشمال أو من الشمال إلى الجنوب ، وذلك بفضل كثرة المسالك فيها ، كما يتضح من خرائط الدروب والطرق التى استخدمتها القوافل من فجر التاريخ وما برحت تستخدمها إلى اليوم . و بحسبك دليلا على ذلك أن الحدود المصطنعة بين شقى الوادى تقسم أراضى القبيلة الواحدة بمراعيها وآبارها بحيث تجعل قسما منها داخل حدود مصر وتجعل القسم الآخر فى حدود السودان كما هو الشأن فى جماعات البشاريين الذين تحاول هذه الحدود تمزيق شملهم بالاختلاف على توزيع الآبار والمراعى التى تحتم تقاليدهم أن يستغلوها إستغلالا مشتركا على أساس أن الماء والمراعى ملك مشاع للجميع .

الوحدة الجنسية

لم يعد خافياً على أحد أن الحاميين والساميين كليهما من المجموعة البشرية التي اصطلح العلماء على تسميتها بجنس البحر المتوسط ، و إن هذا الجنس بدوره ينتمى إلى المجموعة القوقازية . ولم يعد خافياً كذلك أن التفريق بين حامى وسامى أساسه الثقافة بما فيها اللغة ، منضما ذلك إلى فوارق ثانوية ناشئة من اختلاف المؤثرات التى أحاطت بكل من الصنوين بعد انفصاله عن الآخر . ومن أجل هذا الإتحاد فى الجنس لا ينشأ عن التزاوج بين الحاميين والساميين أثر ظاهر فى الصفات الجثمانية ، و إنما يكون الأثر واضحاً فى اللغة وما إليها من مظاهر الثقافة .

ونحن أهل وادى النيل ننتسب إلى الحاميين الذين سكنوا مصر والنوبة من أقدم العصور والذين ساهموا مساهمة أساسية فى التكوين الجنسى لسكان السودان بأجمعه . وهذا هو السبب فى أننا حين ننتقل من إحدى مناطق الوادى إلى المنطقة المجاورة لها ، لا نجد تغيراً مفاجئاً فى لون البشرة أو شكل الأنف أو تركيب الشعر .

و إذا كان اتصال السودان بمنطقة الزنوج الواقعة إلى الغرب و إلى الجنوب منه اتصالا قضى به إنعدام الفواصل الطبيعية بينه و بين هذه المنطقة . إذا كان هذا الاتصال أدى إلى تسرب العنصر الزنجى إلى السودان ، و بخاصة إلى جنوبه ، فإن ذلك لم يخف الأصل الحامى لسكان الوادى ، وما لذلك الأصل من أثر قوى فى الجنس واللغة والحضارة حتى فى القبائل شبه الزنجية أمثال

الشلوك والدنكا والنوير ، لأن هؤلاء ما يزالون بعيدين عن صفات الزنوج الحقيقية . ومن ثم كان من الخطأ البحث القول بوجود سودان قوقازى وسودان زنجى ، أو كما يزعم المغرضون ، سودان شمالى وسودان جنوبى .

وقد دخل العرب أفريقية قبل الإسلام بأكثر من ألف عام ونشطت حركتهم بمصر والسودان بوجه خاص أيام البطالمة والرومان ، إذ أخذ كثير من الحميريين ينتقلون إلى أفريقية قبل ميلاد المسيح عليه السلام ، وسار بعضهم مع النيل الأزرق ونهر عطبره حتى بلغوا النوبة ، ونشروا لغتهم وثقافتهم حيثما حلوا .

وحدث مثل ذلك فى مصر قبل الإسلام بزمن طويل واستقر كثير من العرب بالصحراء الشرقية حتى سميت باسمهم ، وسكن بعضهم المدن حتى قال سترابون (٥٤ ق . م — ٢١ م) عن قفط أنها مدينة نصف عربية . ومن العرب الذين نزلوا مصر أناس تابعوا السير جنوبا وانتشروا فى السودان فعمته لغتهم وغيرها من عناصر ثقافتهم وظهر أثرهم على أشده فى قبائل الكبابيش .

انتشار الإسلام فى وادى النيل

لما تم للعرب فتح الشام — ما عدا ثغوراً قليلة بقيت تقاوم بفضل امداد الأسطول الرومى لها — رأى عمر بن الخطاب أن يعقد مؤتمراً يحضره كبار القواد وذوو الرأى لتقرير الخطة التى يجب أن يسير عليها المسلمون فى البلاد التى فتحوها من حيث إقرار الأمن فيها ورعاية مصالح أهلها ، ومن

حيث الاحتفاظ بها ومدافعة الأعداء عنها . ورأى أن يكون هـذا المؤتمر فى الشام حيث يوجد عدد كبير من القواد وحيث يستطيع أن يرى أحوال البلاد بنفسه .

واختار للمؤتمر مكاناً كان قواد العرب قد اتخذوا منه مقراً لقيادتهم العليا بالشام وهو الجابية . و إنما اختاروا الجابية لوقوعها على الأرض المرتفعة القائمة إلى الشرق من بحر الجليل (بحيرة طبرية) بحيث تستطيع جنودهم أن تسير على الطرق الرومانية القديمة إلى دمشق فى الشمال و إلى الأردن وفلسطين فى الجنوب و إلى طبرية فى الغرب . والجابية — فضلا عن ذلك — تحيط بها المروج الخضراء ويكثر بها الكلأ الذى لا تستغنى عنه بل العرب وخيلهم

وانعقد المؤتمر فى الجابية ، وفيه اتضح لعمر ولقواده أنه لاقرار للعرب بالشام ما دام الروم يستطيعون أن ينقضوا عليهم من مصر و يقطعوا عليهم خط الرجعة إلى المدينة ؛ وقدر المؤتمر أن ما اشتهرت به مصر من الثروة ، وماعرف عن أهلها من البراعة فى صناعة السفن ، وما تضمه الأسكندرية والقلزم وسائر ثغورها من الأساطيل — قدر المؤتمر أن ذلك كله من شأنه أن يشجع الروم على تجييش الجيوش منها ، وتسيير الأساطيل من ثغورها فى البحرين المتوسط والأحمر للقضاء على تجارة المسلمين ، فبان له أن الاحتفاظ بالشام يحتم عليه إبعاد الروم عن مصر .

وتنفيذاً لقرار مؤتمر الجابية أسند أمير المؤمنين فتح مصر إلى عمرو ابن العاص ، وربما كان من أسباب ذلك سابق معرفته بها ، وفرط تحمسه لفتحها . وسارع عمرو لانجاز مهمته ، وأملت عليه طبيعة الأرض السير فى

الطريق الذى سلكه أكثر الداخلين من الشام إلى مصر والخارجين من مصر إلى الشام سواء فى ذلك الفاتحون والمهاجرون والتجار والحجاج : ذلك بأن من يريد عبور أرض قاحلة أو شبه قاحلة لا مناص له من تحرى السير فى الطريق الذى يجد فيه ما يكفيه من الماء الصالح للشرب . ومواقع الماء فى القسم الشمالى من شبه جزيرة سيناء تبدأ من العريش وهى بقعة غنية بمائها ومزارعها ونخيلها ، وتسير بعيدة عن الساحل قليلا لأن التربة هنا لك تحتفظ بماء المطر على غور قليل ، ولأن الأرض جامدة فى أكثر أجزائها . فإذا جاوزت قاطية وقربت من بور فؤاد الحالية اتجهت إلى الشمال الغربى لتتجنب الكثبان الرملية الواقعة إلى الجنوب من الفرما .

ولما بلغ العرب هذه المدينة وجدوها محصنة كما وَجدوا بها حامية قاومت نحو شهر فلما استولوا عليها أخذوا اتجاهاً جنوبياً غربياً حتى وصلوا إلى موضع القنطرة الحالية فى أول سنة ١٩ هـ . وأول سنة ٦٤٠ م . ومن ثم لازموا حافة الصحراء حتى بلبيس حيث وقف لهم الروم فترة .

ثم قصدوا حصن بابليون الذى اختاره الأقدمون على نحو ٢٣ كيلو متراً من رأس الدلتا ليشرف منه الجند على الوجهين القبلى والبحرى وليطل على النيل فيكون ذلك وقاية له من ناحية الغرب ووسيلة اتصال بين حاميته و بقية البلاد . وآثار حصن بابليون تعرف اليوم بقصر الشمع و يوجد بداخله المتحف القبطى والكنيسة المعلقة .

ولمناعة موقعه طال حصاره سبعة أشهر . فلما سلمت الحامية سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) عبر عمرو النيل وسار محاذياً له ثم لفرع رشيد بحيث يكون على

حافة الصحراء التي يألفها العرب ، وبحيث يستطيع فى الوقت نفسه أن يرد الماء . فلما طلع الجيش العربى على الاسكندرية هاله موقعها وحصونها . فأما موقعها فبين البحر المتوسط وبحيرة مريوط وبذلك يحمى الماء جانبين منها وأما حصونها فتمكن حاميتها من المقاومة الطويلة بفضل مناعتها وبفضل اتصال الحامية بعاصمة الروم عن طريق البحر .

ولما يئست الحامية الرومية من الانتصار على العرب تقرر الصلح بين الطرفين فكان فتح مصر صلحاً وذلك سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) ومنذ ذلك الوقت أخذت مصر تصطبغ بالصبغة الإسلامية تدريجاً حتى صارت بلداً إسلامياً لغته العربية وأهم عناصر ثقافته إسلامية عربية .

ولما كان وادى النيل وحدة طبيعية كما سبق القول ، لم يكن للعرب بد من ارتياده كما ارتاده من قبلهم ، فبلغوا النوبة وعقدوا معها معاهدة تجارية عرفت باسم البقط بمعنى العهد والميثاق[1] وأنشأوا مسجداً فى دمقله فسرى إلى تلك البلاد دينهم ولكن سيره بقى بطيئا بسبب قوة دولة النوبة التى بقيت على المسيحية إلى القرن الثالث عشر الميلادى .

أما السودان فان العرب المسلمين دخلوه عن طريق مصر وعن طريق البحر الأحمر فلم يجدوا أنفسهم غرباء فيه ، بل وجدوا بنى جنسهم قد سبقوهم إليه ، ووجدوا فيه مراعى أصلح لإبلهم مما رأوا فى مصر ، فأكثروا الارتحال إليه . ولم يقتصروا على المراعى الصالحة للابل بل تجاوزوها جنوباً إلى مراعى البقر وحذقوا تربيتها فصار منهم الأبالة والبقارة .

---

(١) وذلك سنة ٣١ هـ (٦٥٢ م) .

ومن الهجرات العربية المهمة هجرة بعض الأمويين وأتباعهم حين قضى العباسيون على الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ — ٧٥٠ ميلادية وإقامتهم فى منطقة سنار وانضمام كثير من العرب إليهم وأصهار هؤلاء وأولئك إلى السكان ونشر الدين الحنيف بينهم منضما إليهم لغتهم وتقاليدهم .

وما زالت قوة هذه الجماعة تزداد حتي نشأ عنها اتحاد الفنج وبذلك قطعوا بين الحبشة المسيحية والنوبة المسيحية . ثم تضافروا مع المسلمين من أهل شمال الوادى فقضوا على مملكة النوبة وكانت قد انقسمت إلى مملكتين ، ونشروا الإسلام فى كل أنحائها وتمت بذلك وحدة وادى النيل من الوجهات الدينية واللغوية والثقافية كما تمت من قبل ذلك بألوف السنين من الوجهة الطبيعية .